1

حي ابن يقظان

حمودة الشريف كريم

سلسلة المطالعة المفيدة



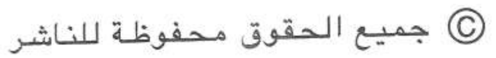
دار اليمامة للنشر والتوزيع - تونس -

سلسلة المطالعة المفيدة

حي ابن يقظان

النّص : حمودة الشريف كريم
الرّسوم : رضوان الرياحي

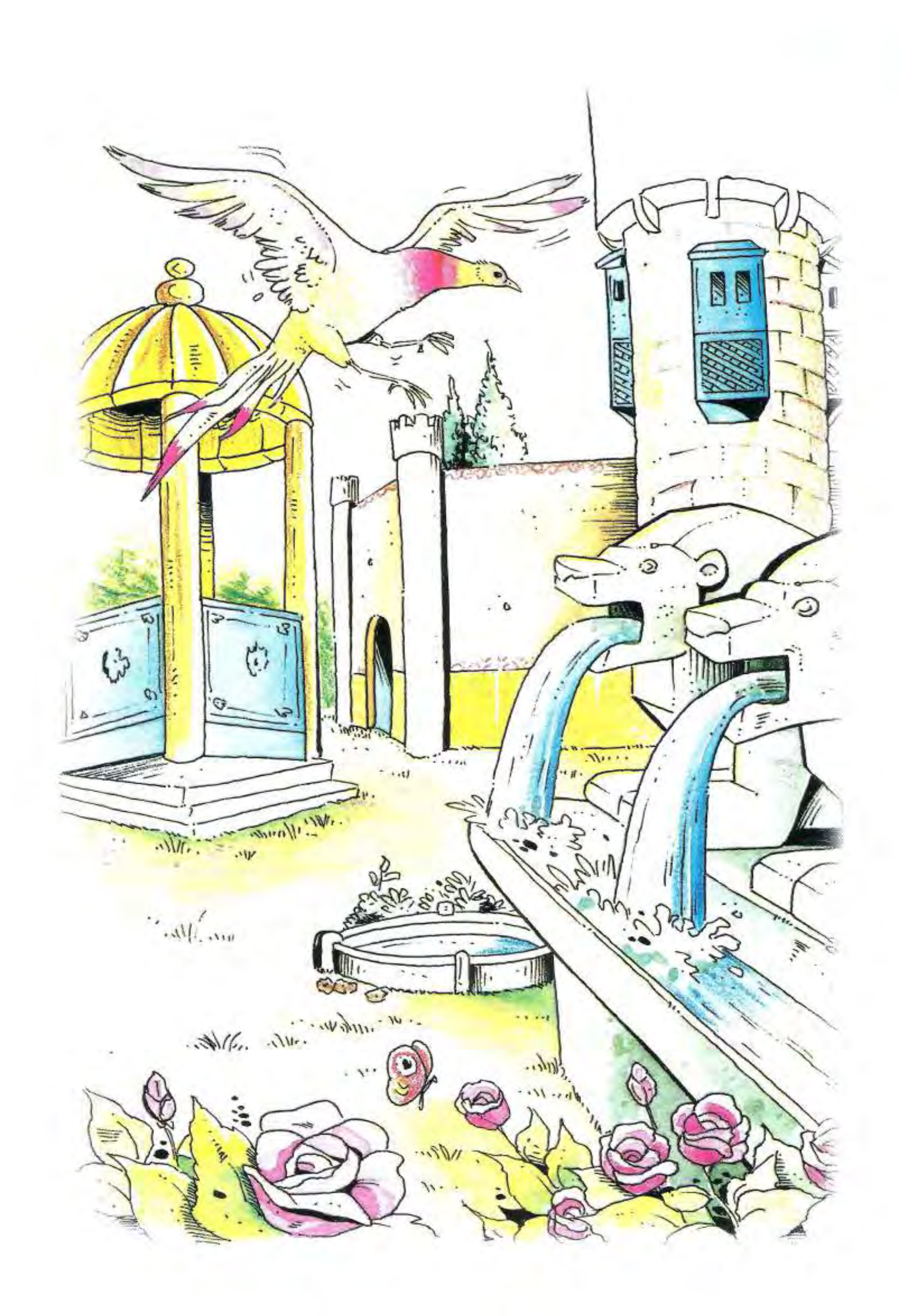
دار اليمامة للنشر والتوزيع



كَان أَبي تاجرًا مُوسرا، لَه أَكبُر دُكّان في المدينة، وهُو أَمينُ التُّجّارِ، وكَانتْ دَهاليزُ قَصرنا مَلأَى بِصناديقِ الذَّهبِ. وقَصرُنا أَحسنُ قَصرٍ في المدينة، يَقع عَلى ضِفّة نَهر عَظيمٍ، وقَد تَفنّن الرَّسّامونَ في نَحته، والمِعماريُّون في بِنائه، فَهذه صُور الحيتان تَتخلَّل السَّاحةَ الكُبرى، يَخالُها النَّاظرُ بَحرًا، وهَذه طُيورٌ منْ فضّة ومَناقيرُها منْ ذَهب تَنطلقُ مُزقزقةً، مُغرِّدة إذَا دَخلَ الماءُ جَوفهَا، وهَذه أُسودٌ تَزأَر إذَا جَرى الماءُ منْ أَفواهِها، وهَذه صُور حَيوانات غَريبة تَزدانُ بها الحِيطانُ والأَبوابُ منَ الأَبنُوس المُطعَّم بِالفضّة، والحلقُ منَ الذَّهبِ، والثُّريَّات تَتدلَّى منَ السُّقوف، والنَّوافذُ تَفتحُ عَلى أَشجارِ البُرتقالِ، والخَوخِ، والأجَّاص، والعِنب، والجَداولُ تَنسابُ كَالأفاعِي في وَسط

الحَديقة، مَنظرٌ مُغْرٍ ومَشهدٌ عَجيبٌ يَبعثُ في النَّفسِ الانشِراحَ والأَملَ، وحُبَّ الحياةِ. وكانَ القصرُ يَعُجُّ بِالغِلمانِ والجَوارِي البَربَريَّات والصَّقْلبيَّات.

كُنتُ أَعيشُ في هذا الجوِّ المُؤنقِ الرَّائقِ، فَأَشعرُ بالسَّعادَة تُحيطُ بي منْ كلِّ جانبٍ، وكانَ أَبي يَحرِص على تَربيتي تَربيةً مثاليَّة، فَكلَّف أَساتذةً مُختصِّينَ بتعليمي وتَثقيفي، وتَنشِئتي تَنشئة صَالحةً حتَّ أَنفعَ المُجتمعَ. وشُغفتُ بالتِّجارةِ، ولاَزَمتُ أَبي، فَكنتُ أَصطحبهُ في الرَّحلات القَصيرةِ، وحَرصتُ على أنْ أَتعلَّم فُنونَ التِّجارةِ وأَساليبَها، وبِالممارسةِ، استَطعتُ أنْ أَفهمَ غَوامِضها وأَكتشفَ أَسرارَها، وأَحذقَها. وأَضحيْتُ أَعرفُ كَيف أَتدبَّر الشُّؤونَ التِّجاريّةَ دُون الاسِتعانة بِوالدِي.



كَان التُّجّار يَقصدون بلادَ الصِّين والهند، فَيبيعُون ويَشتَرون، ويَعودُون بأَرْباحٍ خَياليَّة. وكَان أَبي يَذهبُ فَيأتي بِخيرات وكُنوزٍ ذَهبيَّة، ويَروي لي أَخبارًا مُثيرةً عمَّا رَآه منْ عَجائبَ وما لاَقاهُ منْ أَهْوالٍ وغَرائبَ، وما شَاهدَه منْ مَفاتِنَ وطَرائفَ، واشْتقتُ إلى الذَّهاب للاطّلاعِ والاسْتمتاعِ والمغامَرة. وكانَ أَبي يُمانِع خَوفًا عَلى جِسمِي النَّحيلِ، وتَوسّلتُ إليه المِرارَ العَديدةَ، وأَعانَتني أُمّي على ذَلك، فَنزلَ عند رَغبَتي، وقرَّر أنْ يَصطحِبَني مَعه إلى الصِّين.

كُنتُ أَعدُّ الأيَّام فَرحا بِالرَّحيل، وأَجمعُ سلعتِي الصَّغيرة، وأُنظِّمها وأَهَيَّأ حتَّ جاءَ اليومُ المُعيَّن، وكُنت قَد استْعدَدتُ الاستعدادَ الكَافي، فَحزمتُ أَمتعتِي، ووَضعتُها بِجانب سِلعة أَبي. ودَّعتُ أُمّي،

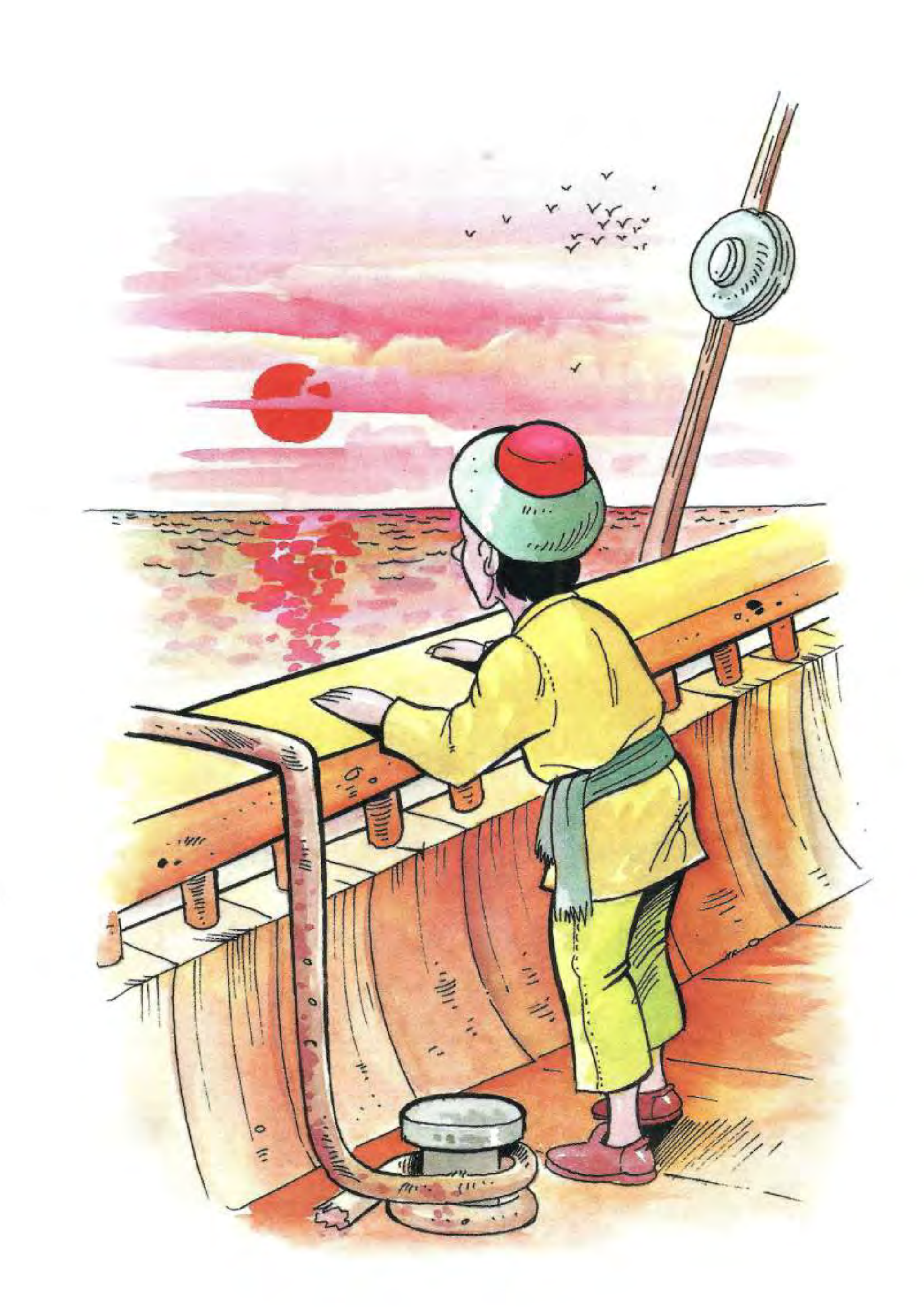
وإِخوَتي، وأَخواتي، ومَن في القَصرِ مِن غلمانٍ وجَواري، وأَلقَيتُ نظرةً أَخيرةً عَلى قَصرنا العَزيز، ورَكبتُ العَربةَ حتَّ المرْفإ حَيثُ وَجدتُ التُّجّار في حَركة دَائبة، وهُم يَجرونَ في اتِّجاهات مُختلفة، ويَتفقَّدون سِلعَهم. صَعدتُ السَّفينةَ، فَتراءى لِيَ القَصرُ في وَسطِ الأَشجارِ وكَأنَّه جَوهرةٌ، فَاشْتعلت الذِّكرَياتُ في قَلبي، وبَكيتُ وانْزلَقت السَّفينةُ فَوقَ الماءِ، فَتصايَح النَّاس مُودّعينَ، ولوَّحُوا بِمناديلهم، بَاكينَ، دَاعينَ الله أنْ يَحفظَ السَّفينةَ ويَرعاهَا.

كُنتُ أَنهضُ بَاكرًا لأرَى الشَّمسَ كَيف تَخرجُ منَ البَحر، ثمَّ وهيَ تَعلُو شيئًا فَشيئًا وتُلقي بِأشعَّتها عَلى سَطحِ الماءِ، فَيتبدَّى جَمالٌ يَخلبُ الأَنظارَ، كَما كُنتُ شَغوفًا بِالوُقوفِ فَوق السَّفينةِ أَترقّبُ وَقت

المَغيبِ، وتَنحدرُ الشَّمسُ والشُّحوبُ بادٍ عَليهَا والاصفرارُ يَغشيهَا، وكَأنّها تَتأسّفُ للفِراقِ، فَتستَولي عليَّ الوحشةُ وأَبقى أَنظُر إلى البَحر كَيف يَتغيَّر لَونهُ، والأُفقِ كَيف يَتّشحُ بِوشاحِ الحُمرةِ.

وفي اللَّيلِ أَجلسُ إلى شَيخٍ بَحّارٍ خِصبِ الخَيالِ، سِحريِّ الكَلامِ، يَقصُّ عليَّ مُغامراتهِ البَحريّةَ، ويَحكِي لِي ما رَآهُ في البَحر منْ عَجائبَ. وكَانتْ هَذه القِصصُ تَجذبُ سَمعي، وإنْ كانَ أَكثرهَا منْ نَسجِ خَيالهِ.

سِرنَا أَيّامًا عَديدةً في البَحرِ، وشَعرنَا بِالتَّعبِ، وسَئمنَا. فَالسّماءُ فَوقنَا والبَحرُ تَحتنَا، وذاتَ يَومٍ، تَراءتْ لنَا جَزيرةٌ، فَفرحنَا، واتَّجهَ نَحوهَا المَركبُ ونَزلناهَا :



وقَال الرُّبّان :

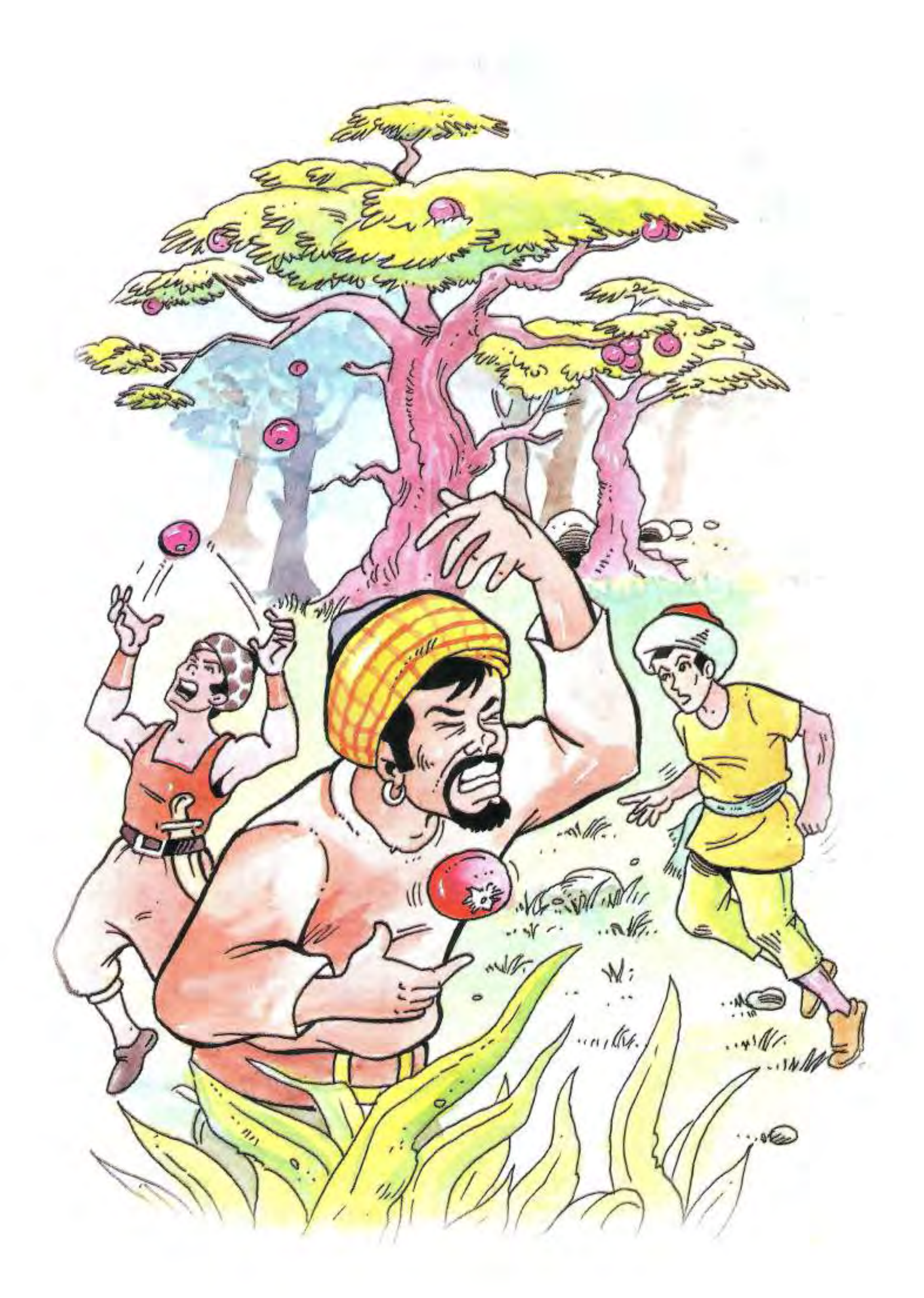
- لا تُطيلُوا المكْثَ.

ودَخلْناهَا فَإذَا هيَ خَاليةٌ منَ الإنسِ، وفيها أَشجارٌ عَلى هَيئةِ البَشرِ، والرُّؤوسُ مِثلَ السِّباعِ، وفِيها ثِمارٌ عَسليَّةَ الطَّعمِ، وطَفقنَا نَقطفهَا، وإذَا بنا نُحسُّ بِالضّربِ يُلهبُ ظُهورَنا، ولم نرَ مَن يَضربِنَا وسَمعنَا مُناديًا يَقولُ :

- ضَعوا ما قَطفتُم وإلاَّ فَالموتُ يَنتظِركُم.

أَلقينَا بِالثّمارِ أَرضًا فَرأيْناهَا تَرجعُ إِلى أَشجارِها مِن غَيرِ أنْ نُشاهدَ أَيديًا تُعيدهَا إِلى أَماكنهَا. رَجعنَا إِلى المَركبِ خَائفينَ نَحمدُ الله عَلى السَّلامة.

سِرنَا أَيّامًا ذُقنَا فِيها الأَهْوالَ، وكَانتِ الأَمواجُ تَعبثُ بِالمركبِ وكَأنَّه الرِّيشةُ، وأَشرفنَا عَلى الهلاك



وبَلغتِ النُّفوسُ الحناجرَ، وكَانتِ الأَدعيةُ تَتصاعدُ منَ المَركبِ، تَتضرَّع إلىَ اللهِ، مُستَجيرةً بلطفِه، وهَدأتِ الأَمواجُ، ولاَحتْ لنَا جَزيرةٌ في عَرضِ البَحرِ فَهنّأنَا بَعضنَا بِالنَّجاةِ، وأَشرقَ الأَملُ وتَناسَينَا ما لاَقيناهُ. اقتربنَا مِن الجَزيرةِ، فَابْتعدتْ عنَّا، فَلاحَقناهَا بالمركبِ وبَقينَا عَلى تلكَ الحالةِ أَيّامًا ونَحنُ نُمنِّي أَنفُسنَا بِالوُصولِ إِليهَا، وقَال الرُّبّان : " أَستغفرُ اللهَ، قَد ضَللْنا الطَّريقَ، هَذه جَزيرةٌ مُتنقّلةٌ، لا تَهدأُ فَهيَ لا تَستقرُّ عَلى حالٍ لأَنَّها تَتّبعُ اتِّجاهَ الرِّياحِ، وقَد أَضعنَا وَقتنَا وَراءهَا وخَاطرنَا بِحياتنا".

وصَاح التُّجّار : " اللَّهمَّ لا تَأخُذنَا بِذنوبنَا".

وبَكينَا، وقَد ضَاع أَملُنا، وأَصبَحنا في عِداد الهَالكينَ.

وسَار المركبُ عَلى غَيرِ هُدى، وشَاهدنَا ظَلامًا أَمامنَا كَأنّهُ الجبلُ، ثمَّ بَدأَ يَلفّنا عِندمَا تَقدَّمنا مِنه وصَاح الرُّبّان :

" أَكثِروا مِن الدُّعاءِ فَالنّجاةُ غَيرُ مَضمُونة، لأَنّنا وَقعنَا في بَحرِ الظَّلامِ، فَداخَلهُ مَفقُودٌ".

وازْدادَتْ أَفئدَتُنَا اضْطرابًا، واشْتدَّ بُكاؤُنَا، وتَشنَّجتْ أَعصابُنا، وانْقطَعنَا عَن الأَكلِ، وأَصبَحنَا نَعيشُ في جَحيمٍ مِن الأَلم، وكَثرتْ صَلواتُنا. وذاتَ صَباح، قَال الرّبّانُ :

" أَبشِروا يا قَوم، هَذه جَزيرةُ السَّلامِ".

لَهجتْ أَلسنَتنَا بِالتَّكبيرِ، وتَسابَقنَا إِلى سَطحِ المركبِ، وقَبّلنَا بَعضنَا بَعضًا، وعَلا وُجوهَنا البِشرُ، وقَد تَضاعفَ الأَملُ في قُلوبنَا، وعَادتْ إِلينَا الحياةُ.

وأَرستِ البَاخرةُ عَلى الشَّاطئِ، ونَحنُ حَذرونَ مُتوجّسونَ خيِفةً واقتبلنَا حُرّاسُ الجَزيرةِ وقَالوا لَنا :

" إنَّ رَئيسَنا يَقولُ لَكم اُدخُلوا الجَزيرَة، وابْقوا ما تَشاؤُون بِشرطِ ألاَّ تَمسُّوا شَيئًا، وإنْ خَالفتُم أَوامِري فَسيحلُّ بِكم عَذابي، وتَموتُون جَميعًا، وسَوفَ لنْ أَتسامَح أَبدًا".

قَبلنَا الشَّرطَ ودَخلنَا، فَإذَا هِي جَزيرةٌ عَجيبةٌ، كُنتُ أَمشي فِيها وكَأنّنِي في حُلمٍ، فَمقاوِدُ الدَّوابِّ، وسَلاسلُ الكلابِ منَ الذَّهبِ، انْدهشْتُ ممَّا رَأيتُ، وكَان أَهلُ الجَزيرَة لاَ يَرفعونَ رُؤوسِهم، ودَكاكِينُهم مَفتوحةٌ، مَلأَى بِالسّلعِ ولَكنَّهم لا يَبيعُون. غَريبٌ أَمرُ هَذه الجَزيرةِ :..! وثِمارُ أَشجارِها عِند المسَاء تَصيحُ : وَاقْ... واقْ... واقْ... واقْ...

ولِهذَا سَمّاها بَعضُ البَحّارةِ "جَزيرَة الوَاقْ وَاقْ"، وآخَرونَ سَمّوهَا "جَزيرَة الذَّهبِ".

بَقينَا في تِلكَ الجَزيرَة يَومينِ، ونَحنُ نَجوبُ شَوارِعهَا ونَتأمَّل طَرائفهَا ونَتعجَّبُ منْ سِيرة أَهلِها وذَهبِها ثمَّ رَكبنَا مَركبنَا، واتَّجهنَا نَحوَ غَايتِنا والدَّهشةُ مُستبدَّة بِنا.

وبَينمَا كُنّا نَسيرُ في البَحرِ لَيلاً، إذْ تَراءى لَنَا ضَوءٌ يُشعُّ وكَأنّهُ عَمودٌ منَ النَّار، وصَاح الرّبّانُ:

" يَا إِلهي، احْفظنَا مِن السُّوءِ، إنَّها السَّمكةُ النَّاريَّة".

وأَقبَلنا نُعينُه عَلى تَغيير وِجهةِ المركبِ، وابْتعدنَا عَن منطقَتهَا وسَألْناهُ عَنها فَقال:

" هَذه سَمكةٌ لَها قَرنٌ صَلبٌ كَالحَديدِ، تَقتلُ بِه

السَّمكَ، وتُغرقُ به السُّفنَ، ويَشعُّ منه ضَوءٌ قويٌّ".

وَاصلنَا سَيرنَا وَوجدنَا جَزيرةً صَغيرةً لا أَشجارَ فيها، وإنَّما تَغشيهَا طَبقةٌ تُشبهُ الخزَّ، واسْترحنَا فيها قَليلاً، غَير أنَّنا شَعرنَا بالأرضِ تَتحرَّك تَحتنَا، فَفزعنَا، وهَرعنَا نَحو البَاخرةِ، وقَال الرّبّانُ :

" سُبحانَ الله، هَذه سَمكةٌ، وقَد كُنّا نَظنّها جَزيرةً".

وسُرعانَ ما ابْتعدنَا عَنها، لنضمَن لأَنفُسنا السَّلامةَ. وسِرنَا في البَحرِ أُسبوعًا، ثمَّ قَال لَنا الرّبّانُ :

" يَلزمُ أنْ أَشدّكمْ إلى الصَّوارِي خَوفا عَليكُم منْ عَروسِ البحرِ".

وعِندمَا وَصلنَا إلى منطقَتهَا، ظَهرتْ لنَا في صُورةِ امْرأةٍ جَميلةٍ حَسناءَ، لم أرَ مِثلهَا في حَياتي.



وانْبعثَ مِن حَلقهَا صَوتٌ ناعِمٌ، رَخيمٌ تَدعونَا إلى تَركِ المركبِ، والذَّهابِ إليهَا. واشْتدَّ بُكاؤنَا ونَحيبُنا شَوقًا إليهَا، وحَاولنَا قَطعَ الحِبالِ، ورَأيتُ تَاجرًا يَتخلَّص منَ الحِبالِ، و يُلقي بنفسه في البَحرِ، فَالْتقَمتهُ والْتهَمتهُ. وعِندمَا تَجاوَزناهَا، أَتى الرُّبّانُ فَحلَّ وِثاقنَا، فَشكَرناهُ عَلى صَنيعهِ، وبَقينَا نَتذاكَر الحَدثَ، وقَد أَثّر في نُفوسِنا كَثيرًا.

ووَاصلنَا سَيرنَا حتّى أَشرفنَا عَلى جِبالٍ عَاليةٍ وشَواطئَ جَميلةٍ وانْبثقَ منَ البَحرِ أَقزامٌ أَثارُوا الرُّعبَ في نَفسِي، وخُصوصًا أَنَّني لم أَعتَدْ رُؤيَتهُم، وقَال الرُّبّانُ :

" الآن وَصلنَا إلى الصِّينِ، وهَا هُم الأَقزامُ".

وتَصايَح التُّجّارُ فَرحًا، وأَرستِ السَّفينةُ ونَزلنَا،

واكْترِيْنَا عَربات حَملنَا فيهَا سلعنَا، واتَّجهنَا نَحوَ العَاصمة، فَوجدنَا أَسوَارهَا عَاليةً ولهَا جَيشٌ عَظيمٌ يَحرسهَا، ولم نَدخُلهَا إلاّ بَعد تَفتيشٍ دَقيق، وكَانت مُنظّمةً تَنظيمًا أَبْهرنَا، وقَد أُقيمت التَّماثيلُ في السَّاحات، وانْتشرت الحَدائقُ أَمامَ المَجموعات السَّكنيّة وعَيّنَ لنَا الملك يَومًا يَستَقبلنَا فيه، فَاستَعددنَا، وحَملنَا تجارَتنَا، وقَصدْنا القَصرَ المَلكيَّ. وفي المدخلِ انْدهَشنَا لأَنّنَا رَأينَا جَميعَ صُورنَا مُعلّقةً في الرَّدهة، وبَقينَا حَائرينَ، فَقالُوا لنَا : ذَلكَ هُو شَأْنُنا، فَلا يَدخلُ غَريبٌ إلى المدينةِ إلاّ ويَرسُمُه الرَّسّامُ لنتّقي شرَّ الجَواسيس.

واسْتقبلَنَا الملكُ وهُو شَيخٌ ذُو لحية طَويلة، مَحلوقَ الرَّأسِ تَتدلّى ضَفيرةٌ طَويلةٌ من أَعلَى رَأسه إلى

ما بَين كَتفيه، فَاشْتَرَى منَّا السِّلعَ وتَهافَت النَّاسُ عَلى شراءِ ما تَبقَّى. وسَألنَا الملكُ عَن بلادنَا، وعَن مَسيرتنَا في البَحرِ، وكنَّا نَسهرُ في القَصرِ، ونَتجاذَب مُختلَف الأَحاديث. وأَرادَ الملكُ أنْ يَختبرَ ذَكاءَنا فَأرانَا صُورةَ طَائرٍ عَلى غُصنٍ فَقالَ :

" مَن منكُم يَستطيعُ نَقدهَا...؟"

فَقال جَميعُ التُّجّار :

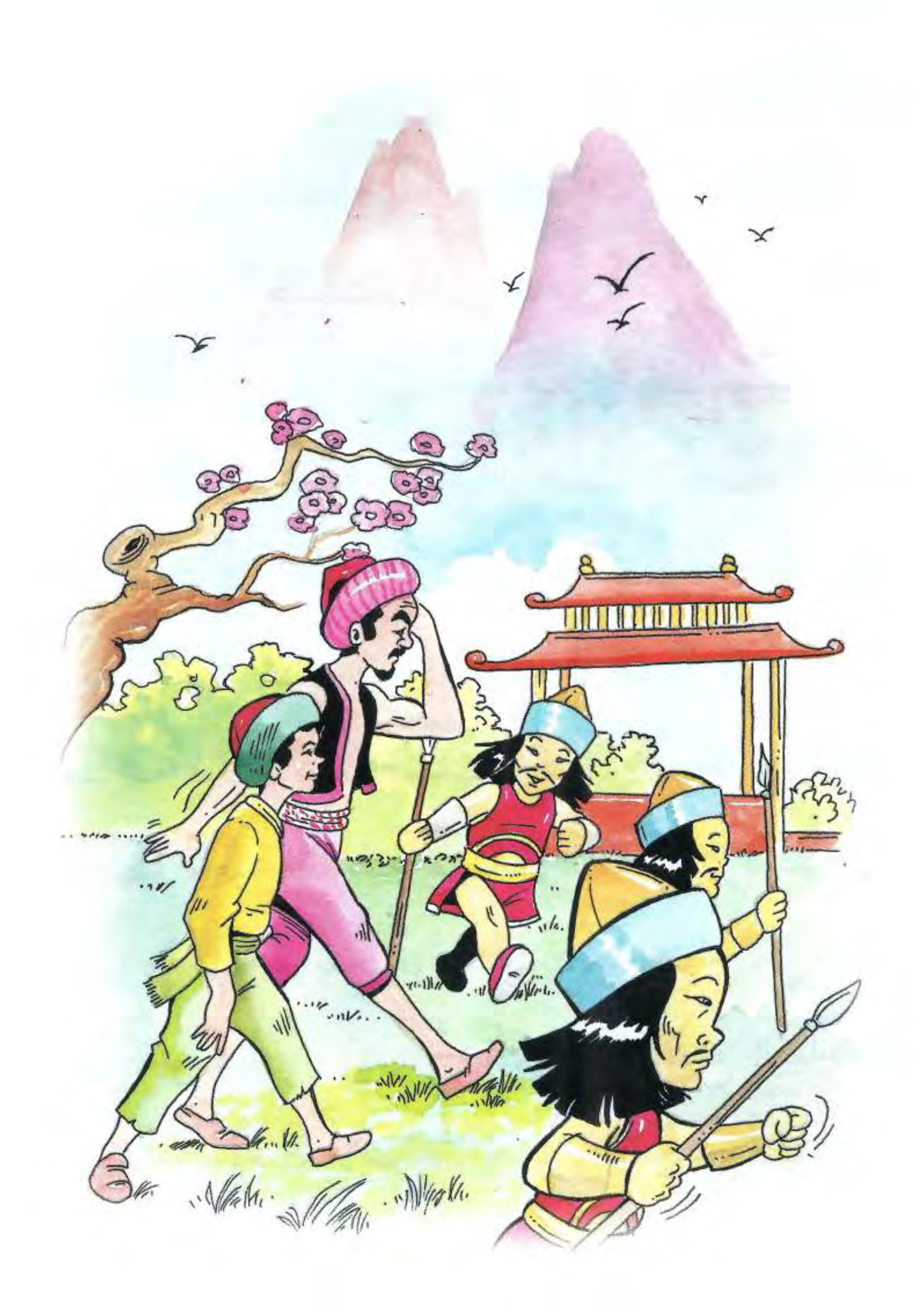
" إنّها صُورةٌ رَائعةٌ لا عَيبَ فيها".

غَير أَنّني بَقيتُ أَتأمّلها، فَنظرَ إليَّ وقالَ :

"مَا تَقولُ أيُّها الشَّابُّ...؟"

قُلتُ :"ليسْمحْ لِي جَلالةُ الملكِ، فَإنَّ في هَذه الصُّورة خَطأٌ".

قَال :"ما هُو...؟"



قُلتُ :"في الوَاقعِ، إنَّ الطَّائرَ إذَا وَقعَ عَلى غُصنٍ فَإنَّ الغُصنَ يَميلُ، وفي هَذه الصُّورةِ، الطَّائرُ جَاثمٌ والغُصنُ غَير مَائلٍ".

قَال :"أَحْسنتَ، إنَّك لَشابٌّ ذَكيٌّ".

وأَهدَاني هَدايَا كَثيرةً، وغَمرني بعطاياهُ.

اشْترينَا سلعًا كَثيرةً، وحَملنَا الذَّهبَ، ورَكبنَا السَّفينةَ وكُلّ التُّجّارِ فَرحونَ بما غَنموهُ منَ الأَرباحِ. وطَابتْ لنَا الرِّيحُ، فَإذَا البَاخرةُ تَشقُّ عُبابَ البَحرِ بسرعةٍ فَائقة. وكُنَّا نُنشدُ أَناشيدَ الفَرحةِ والسُّرور. اتَّجهنَا نَحوَ الجَنوبِ ثمَّ نَحوَ الشَّمالِ، ودَخلنَا بَحرَ الزَّوابعِ فَإذَا الرِّياحُ قَويَّة شَديدةٌ، تَخرجُ منْ تَحت المياهِ، وتَسيرُ في كلِّ اتِّجاه، ولم نَستطعِ القِيامَ بأيِّ عَملٍ، وتَمزَّقتِ الأَشرعةُ، وبَكى النَّاسُ خَوفًا وإشفاقًا

وقَال لي وَالدي :

"النَّجاةُ يا بُنيَّ غَيرُ مَضمونَة، ومَن يَنجُ منّا فَلْيرعَ حُرمةَ البَيتِ ولْيتّقِ الله، ولْيُحافِظْ عَلى شَرفِهِ وعِرضهِ".

وبَقينَا ثَلاثةَ أيَّامٍ، ونَحنُ في أَشدِّ البَأسِ نُصلِّي، ونَدعُو الله. وتَحطّمتِ البَاخرةُ وتَناثرتِ الأَلواحُ، وقَال الرُّبّانُ :

– " لا سَبيلَ إلى البَقاءِ في البَاخرةِ، لِيتدبَّر كلّ وَاحدٍ أَمرهُ، اسبحُوا، واتَّجهُوا نَحو الشَّمالِ".

ارْتمينَا في البَحرِ، وتَعلّقتُ بقطعةٍ خَشبيّةٍ، وأنَا لا أُصدِّق النَّجاةَ، وقَد فَقدتُ الأَملَ. وأَخيرًا نَجوتُ بأُعجوبةٍ : فَقد أَلْقتني الرِّياحُ عَلى شَاطئٍ صَخريٍّ وتَسلّقتُ الصُّخورَ، فَوجدتُ نَفسي أَمامَ غَابةٍ كَثيفةٍ،

وحَمدتُ اللهَ عَلى السَّلامة. مَاذا سَأفعلُ الآنَ...؟ هَذه غَابةٌ هَل سَأبقَى فيها طَوالَ حَياتي...؟ هَل سَأعيشُ منَ الثِّمارِ...؟ الوُحوشُ فيها كَثيرةٌ والنَّجاةُ مُستحيلةٌ، فَحتَّ السُّفنُ لا تَمرُّ منْ هُنا. هَل أَتمكَّن منْ صُنعِ سَفينةٍ....؟ أُمنيةٌ عَسيرةُ التَّحقيقِ فَلأَعتبرْ نَفسي منَ الهالكينَ، حتَّ ولَو تَغلّبتُ عَلى الصِّعابِ، فإنَّ أَقلَّ مَرضٍ يَحلّ بِجسمي يُفقدُني القُوّةَ ولاَ أَستطيعُ التَّخلّصَ منه لأنَّ العنايةَ مَفقودةٌ. بَقيتُ أُفكّرُ حَزينًا، وأَخيرًا قَرّرتُ الاعتمادَ عَلى نَفسي والبَحثَ عَن مَنفذٍ للخلاصِ، أمَّا أنْ أَبقَى مُستسلمًا خَانعًا، فَذلكَ يُفقدني كلَّ قيمة. كَانت الغابةُ في منطقة مُعتدلة، تَقعُ قُربَ خطِّ الاستواءِ، واستهوتْني بِمفاتنهَا، وكُنتُ أُقضّي الأيَّام في الملاحَظةِ والتَّأمّلِ، ورَأيتُ الأَرضَ

تَتخمّرُ فَتُخرجُ ديدانًا غَريبةَ الشّكلِ، ثمَّ ما تَلبثُ تلكَ الدِّيدانُ أنْ تَتوالَد، فَتُنتجُ مَخلُوقات أَعظمَ منها، وهَكذَا تَستمرُّ عَمليّةُ التَّوالُد بِنمطٍ غَريب أَثارَ دَهشتي، وبَقيتُ مُتحيِّرا مُتعجّبًا في طَريقَة التَّوالُد وقُدرة الخالقِ.

كُنتُ أَقْتاتُ منَ الثِّمارِ، ورَأيْتُ في تَطْوافي حَيوانًا لهُ رِيشُ نِسرٍ، وقَامتهُ بَشريّةٌ، وطَفقتُ أَتحَيَّلُ لأراهُ عَن قُربٍ، واسْتطعتُ التَّثبّتَ منه فَإذَا هُو إنسانٌ يَلبسُ رِيشَ نِسرٍ، فَفرِحتُ لأَنّي وَجدْتُ مَن يُؤنسُني، وكُنتُ أَتعرَّض لَه وأُشعرهُ أَنِّي لَستُ خَطرًا عَليه، ولَكنَّه كانَ يَتجاهَلُني، وكانَ غَارقًا في تَأمّلاته ويُحدّقُ بِنظره إلَى السَّماءِ.

وذاتَ مرّةٍ، أَشارَ إليَّ فَتقدَّمتُ منه، وأَردتُ

مُحادثَتَهُ، فَلم يَفهَم كَلامِي، وكانَ يُصوّتُ مثلَ الحَيوانات، فَعرفتُ أنّهُ إنسانٌ بدائيٌّ، مُتوحّشٌ، لا يَعرفُ منَ الحياةِ شَيئًا وارْتبطت الصَّداقةُ بَيننَا ونَقلنِي إلَى الكَهف الَّذي يَسكُنه، وتَلازَمنَا وقُلتُ فِي نَفسي: "لعلَّهُ منَ الَّذينَ رَمتْ بِهم الأَقدارُ مثلِي إلى هَذا المكان، فَأثَّرتْ فِيه الصَّدمةُ فَنسيَ كلَّ شَيءٍ، أَو أنَّ أُمّهُ أَلقتْ بِها سَفينةٌ مَحطَّمةٌ فِي هذَا المكانِ، فَولدَتهُ، ومَاتتْ".

وطَفقتُ أُعلّمهُ الأَسماءَ شَيئًا فَشيئًا، ثمَّ عَلّمتهُ تَركيبَ الجُملِ فَقالَ لِي :"لَيسَ لِي أُمّ ولا أَب، بَل أنَا ابنُ الطَّبيعةِ، أَرضَعتنِي غَزالةٌ إلى أنْ كَبرتُ، وبَدأتُ أَتدرَّبُ علَى الحَياةِ، وأُحاكِي الحَيوانات في جَميعِ أَعمالِها ومَعيشَتهَا ولمَّا رَأيتُ جسمِي عَاريًا، وآلَمنِي

البَرِدُ، تَدثّرتُ بِأوْراقِ الأَشجارِ، ولَكنّهَا سُرعانَ ما يَبستْ، وتَناثَرتْ، فَفكّرتُ في وَسيلةٍ أُخرَى تَكونُ أَقوَى وتَدومُ أَكثرَ، ورَأيتُ النِّسرَ أَقوَى الطُّيورِ، فَلبستُ جلدَه وريشهُ. ومَاتتْ أُمّي الغَزالةُ، فتألَّمتُ كَثيرًا لفَقدهَا، وأَردْتُ أنْ أَعرِف سَببَ مَوتهَا، فَشرَّحتُهَا، فَإذا بِي أَجدهَا بَاردةً، خُصوصًا وأنَّ الشُّعلةَ الَّتي في قَلبها قد انْطفَأتْ، ثمَّ اكْتشفتُ النَّار، فَصرتُ لا آكلُ الطَّعامَ إلاَّ مَطبوخًا، وهَكذَا تَدرَّجتُ في اكْتشاف العَالَم الَّذي حَولي، حتَّ اهْتديتُ إلى أنَّ خَالقَنَا هُو الَّذي أَوجدَ هذَا الكَونَ، وبَعثَ فيه الحياةَ.

اِسْتغربتُ من هَذه القصّة وقُلت في نَفسي :"كَيف اسْتطاعَ إنسانٌ بِدائيٌّ أنْ يَتوصَّل إلى هَذه المعَارفِ عَلى جَهله بِرسالةِ الأَنبياءِ والمرْسلينَ...

وتَناقَشنَا في الأُمورِ الدِّينيّةِ، فَوجدْتهُ عَارفًا بما أَتتْ بِه الرِّسالةُ النَّبويّةُ، وقُلتُ لهُ :

– " أُريدُ أنْ أُسمّيكَ".

قَال : " لَك ما تُريدُ"

قُلت : " أُسمّيكَ "حَيًّا".

قَال : " لماذَا "حَيّ"...؟

قُلت : " حَيّ مَعناهُ العَقلُ، وأَنتَ اكْتشفتَ العالَمَ بِعقْلكَ".

قَال : " أَنا ابنُ مَن...؟"

قُلت : " ابنُ يَقْظانَ ".

قَال : " ومَن هُو يَقظانُ...؟"

قُلت : " إنَّ يَقظانَ يُذكِّرنَا بِصفةٍ مِن صِفاتِ اللهِ الّذي خَلقنَا، وهُو دَائمًا يَقظانُ لاَ يَنامُ، وهُو

الَّذي أَرشدَ عَقلكَ لمعرِفةِ الحَياةِ".

فَقال لي : " إذنْ أنَا حيٌّ ابنَ يَقظانَ".

بَقينَا كَثيرًا في تلكَ الجَزيرَةِ، وعَرّفنِي عَلى أَرجائِهَا، وقَد كَانتْ في غَايةِ الجَمالِ لم تَمسَسهَا يَدُ إنسانٍ، فيهَا أَشجارٌ كَثيفةٌ وثِمارٌ مُتنوّعةٌ ومِياهٌ مُنسكبةٌ ووُرودٌ مُشكّلةُ الأَلوانِ.

وذَاتَ يَومٍ، لاحَ لنَا مَركبٌ في وَسطِ البَحرِ، فَصعدنَا فَوقَ رَبوةٍ وأَشرنَا إِليهِ، فَاقْتربَ منَّا، وارْتمينَا نَسبحُ حتَّى وَصلنَا، وقالَ لنَا الرُّبّانُ :

– " مَن أَنتُما...؟"

قُلت : " غَريبانِ، تَحطّمَ بنَا المركبُ فَبقينَا في هَذه الجَزيرةِ حتَّ كُتبتْ لنَا النَّجاةُ عَلى يَديكَ".

سِرنَا في البَحرِ حتَّى وَصلْنا إلى بَلدٍ، فأُرسِيَ

المركبُ، ونَزلَ التُّجّارُ، وسَلّمنَا الرُّبّانُ إلى مَلكِ البِلادِ، فَسألنَا عنْ بِلادِنا وعَن مَقصَدنَا ومَا نُريدُه، فَشرَحنَا لَه نِيّتنَا، فَلم يُصدّقنَا، وقَرّرَ سَجننَا، وقَال :

- " أَنتُما جَاسوسَان".

كَانتِ الحِراسةُ مُشدَّدةً عَلينَا، وسَجنُونَا في دهْليزٍ تَحت قَصرِ الملِك. فَكانُوا في الصَّباحِ يُدخلونَنَا إلى الدِّهليز، وفي اللَّيلِ يُصعدونَنَا إلى القَصرِ. فَكنَّا نَعيشُ في ظُلمةٍ دَائمة لا نَرى الشَّمسَ. وكنَّا نُشاهد الملِكَ وهُو يَعيشُ لَيالي حَمراءَ يَقضيهَا في العَبثِ معَ جَواريهِ وأَفرادِ حَاشيتِه.

وكانَ يَأتينَا شَيخٌ يُجادِلنَا ونَتحادَثُ مَعه في مُختَلفِ شُؤونِ الحَياة، وسَببِ خَلقِ الكَونِ. وكانَ هذَا الشَّيخُ لَطيفًا، عَاقلاً، بَصيرًا، ذَكيًّا، مُتفهّمًا

لِلمشاكل، يَشرحُ لنَا كَثيرًا منَ الأُمورِ الَّتي تَغمُضُ عَليْنَا، فَأحْبَبناهُ، وتَعلّقنَا بِه، وأَحبَّنا هُو أَيضًا. وكانَ يَغتَنمُ فُرصةَ غيابِ الحُرّاسِ، فَيُصعدُنا إلَى السَّطحِ فنتَنعّمُ بِالشَّمسِ، ونَتلذّذ بِأشعَّتها.

وسَئمنَا تلكَ الحَياةِ ولاَحظَ الشَّيخُ قَلقنَا، فَقالَ لَنا :

- " مَاذا تُريدانِ...؟"

قُلنا : " الهرُوبَ".

قَال : " سَأكُونُ أَوّلكُم، ولِي خَدمٌ سَيُعينونَنا".

وقَالَ : " أيَّ مَكانٍ نَقصدِ؟"

قُلنا : " جَزيرَتنَا".

قَال : " اتَّفقنَا ".

هيَّأ لَنا خَدمُه بَاخرةً، وتَسلّلنَا منَ السِّجن

هَاربِين، ورَحلنَا إلى الجَزيرَة، ووَصلْناهَا و كُلّنا شَوقٌ إليْها. وبَعد أيَّامٍ، مَات الخَدمُ لأنَّهم لم يَألَفُوا طَبيعةَ تلكَ الجَزيرَةِ، وبَقيتُ أنَا والشَّيخ وحيّ ابنَ يَقظان في هَذه الجَزيرةِ نَعبُد الله، ونَقضِي النَّهارَ واللَّيلَ في التَّأمُّل، وانْقطعنَا عنِ العَالَم، وكَانت السَّعادةُ تَغمرُنا، والنُّورُ يُشرِق عَلينَا، وكَلّفنَا الشَّيخُ بِكتابةِ قِصّتنَا ونَقشِها عَلى حِجارةٍ لِيقرَأهَا مَن يَأتِي بَعدنَا ويَعتَبِرَ بهَا.

انتهى طبع هذا الكتاب

بمطبعة توب للطباعة

10 000 نسخة

مارس 2003

سلسلة
المطالعة
المفيدة

1 حي ابن يقظان : حمودة الشريف كريم
2 مدينة النحاس : حمودة الشريف كريم
3 الصياد والقمقم : حمودة الشريف كريم
4 أميرة الزنجبار : محمد العروسي المطوي
5 شعاطيط بعاطيط : محمد العروسي المطوي
6 حمار جكتيس : محمد العروسي المطوي
7 السمكة المغرورة : محمد العروسي المطوي
8 عنز قيسون : محمد العروسي المطوي
9 الكنوز الثلاثة : ناجي الجوادي
10 شجرة الذهب : ناجي الجوادي
11 من حكم الشيخ : الطيب الفقيه أحمد
12 خلخال عائشة : الطيب الفقيه أحمد
13 خديجة والمخلوقات الكونية : الطيب الفقيه أحمد
14 ابتسام ثريا : حسناء الحمزاوي
15 مدينة البساتين : مصطفى المدائني
16 يسرى والنحل والوردة الحمراء : مصطفى المدائني



دار اليمامة للنشر والتوزيع - تونس -



الثمن : 1,100 دت

ISBN : 9973 - 24 - 299 - 8